من أدب التاريخ

أبو مروان الخرائطي

للأستاذ محمود عزت عرفة

في عام ٢٢٩ من الهجرة حبس الخليفة العباسي الواثق كتاب دولته وألزمهم مغارم جسيمة ، متهما إياهم بالخيانة واحتجان المال

وكان بين هؤلاء : أحمد بن إسرائيل ، وسليمان بن وهب كاتب إيتاخ القائد ، وأخوه الحسن بن وهب ، وأحمد بن الخصيب ، وإبراهيم بن رباح ، ونجاح بن سلمة ، وأحمد بن خالد الملقب بأبي الوزير .

وقد تولى تدبير هذا الأمر محمد بن عبد الملك الزيات وزير الواثق . وكان ابن الزيات — على رجاحة عقله ووفور علمه وأدبه — ينطوي على أبلغ ما تنطوي عليه جوانح رئيس من القسوة والظلم والاعتساف

وكان سليمان بن وهب من أشد هؤلاء المنكوبين تعرضا للأذى ، وإن كان قد خلص بنفسه من العطب تحت شروط ثقال

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية انقسمت الدول المتحالفة إلى كتلتين: إحداهما شرقية تزعمها روسيا، والأخرى غربية تزعمها أمريكا وانجلترا . ولما كانت روسيا تطمع دائما في الاستيلاء على القسطنطينية والبوغازات لتتمكن من الوصول إلى البحر الأبيض ، ولما كان هذا لا يتأتى إلا على حساب تركيا فقد انضمت تركيا إلى المعسكر الغربي حرصا على سلامتها

ولكن خوف تركيا على سلامتها يجب ألا يدفعها إلى الوقوف في وجه الأماني القومية المصرية؛ فهناك القاعدة البريطانية العسكرية في قبرص وهي قريبة منها ، وقد أخذت إنجلترا قبرص من تركيا سنة ١٨٧٨ نظير تعهدها بالدفاع عن أراضيها

للبحث صلة

أبو الفتوح عطيفة

ارتضاها وأقر بها . ويسجل الطبري ذلك في تاريخه فيقول : [١]

« أمر الواثق بحبس سليمان بن وهب كاتب إيتاخ ، وأخذه بمائتي ألف درهم — وقيل دينار — فقيد وألبس مدرعة من مدارع الملاحين ، فأدى مائة ألف درهم . وسأل أن يؤخر بالباقي عشرين شهراً ، فأجابه الواثق إلى ذلك ، وأمر بتخلية سبيله ورده إلى كتابة إيتاخ ، وأمره بلبس السواد » .

ويروى القاضي التنوخي في كتابه (الفرج بعد الشدة) ، بإسناد إلى سليمان بن وهب نفسه ، قوله : [٢]

« كنت في زمن محمد بن عبد الملك في أيام الواثق لما صادرني عن كتابة إيتاخ على أربعمائة ألف دينار ، وقد أديت منها مائتي ألف ونيفاً . فاستحضرني يوماً وطالبني بالباقي ، وحدني فيه وأرهبني ، ولم يرض مني إلا أن أجبت أن أؤدي خمسين ألف دينار قاطعة للمصادرة ، على أن يطلق ضياعي . . »

* * *

جلس محمد بن عبد الملك الزيات يوماً يجد في مطالبة هؤلاء المنكوبين ويمعن في إرهابهم واحداً بعد الآخر . فلما كانت نوبة سليمان أعاد عليه المطالبة وأغلظ له في القول ، وسامه أن يقرر كتابة بقدر من المال جسيم . وقبل أن يأخذ خطه بما قرره عليه خرج من دار الحرم خادم صغير ودس في يد الوزير رقعة مكتوبة ، فلم يستوعب بنظره كلماتها حتى نهض في إثر الخادم معجلا

وكان بين الحاضرين الحسن بن وهب أخو سليمان ، وهو لا يزال موضع رضا الوزير ، وإن كان ليخشى أن يتحدث إليه في شأن أخيه فهو يشهد ما يجري عليه وقد انطوت نفسه على أسف بالغ وأسى كظيم

. . كان قصارى جهد الحسن إذ حضر مجلس المطالبة — وهو يحضره غالباً بحكم موضعه من خدمة الوزير — أن يستقبل أخاه بنظرات التشجيع ، ثم يشيعه وهو خارج يجر قيوده بنظرات ملؤها الأسف والإشفاق

ولكن الحسن في ذلك اليوم كان على غير عادته ، يلوح كمن يسر خبراً مفرحاً تكاد تنطق به قسمات وجهه . ولعل أخاه على

(١) الطبري : ج : ١١ — ص : ١٢

(٢) الفرج بعد الشدة . ج ١ — ص : ٩٦

شغله الشاغل بنفسه استشف من ذلك شيئا ، فبادله نظرات خفية فيها الحيرة وفيها التساؤل . ولم يعتد هذا الوقف بالأخوين كثيراً ؛ فقد انتهز الحسن فرصة تغيب الوزير بدار حرمه وألقى إلى سليمان برقعة لطيفة استقرت فى حجره ، فراح يلمسها بأنامله فى اضطراب ثم بسط ثناياها وقرأ هذه العبارة بخط أخيه : « جاءنى الخبر الساعة من دارك أنك قد رزقت ابنا ، خلقا سويا ، وهو جسم بغير اسم . فما تحب أن يسمى ويكنى ؟ »

واتجه سليمان بنظره إلى ناحية أخيه ثم همس : عبيد الله . . أبو القاسم !

وسرت فى سليمان منذ هذه اللحظة روح جديدة ، وتداخله بما قرأ سرور وقوة نفس . وفى حلم خاطف من أحلام اليقظة رأى ابنه طفلا رضيعا ، ثم غلاماً ، ثم فتى يافعا ، ثم رجلا قوى الأسر كامل النفس موفور الحلم ، يتبوأ المناصب الخطيرة ، ويشد من أزر أبيه بماله وبجاهه

وعاد الوزير بعد حين إلى مجلسه فأمسك قليلا ، ثم أقبل يعيد المطالبة على سليمان ، ويريده أن يوقع على مارضى الإقرار به . فما أدهشه إلا أنه يرفض مرة ، ويستمهل أخرى ، ثم هو فيما بين ذلك يجادل ويدافع ، ويدلى بالحجة وراء الحجة . .

كان سليمان بحال من انبعاث النشاط وتجدد الأمل لم يخطر للوزير أن تكون . فانعقد لسانه من فرط البغتة ، وأقبل يرمق سليمان فى حيرة وإنكار ، ثم قال له :

— يا أبا أيوب ، ماورد عليك بعدى ؟ أرى عينيك ونفسك ووجهك بخلاف ماخلفتك منذ ساعة !

فأجاب سليمان : ماورد على شىء !

قال الوزير : والله لئن لم تصدقنى لأوقعن بك من العذاب مايستخرج منك الحق واضحا

فقال سليمان فى غير مبالاة : ماعندى ما أصدقك عنه

ونظر الوزير إلى الحسن بن سهل وقال : لتخبرنى بشأن أخيك

ولم يطل بالحسن التفكير ، فقد كان يعلم من عسف الوزير ومن زعارته أضعاف ما يتراءى عليه إلى سائر الناس : فأخبره بالحديث على وجهه حتى سكنت نفسه ، ثم قال :

— أتدرى لأى شىء قمت أنا ؟

— قال : لا

— قال : كوتبت بأن وُلدا ذكرا سويا قد ولد لى ، فدخلت فرأيته وأسميته باسم أبى ، وكنيته بأبى مروان !

وبرقت فى ذهن سليمان خاطرة ، لم يلبث معها أن نهض إلى موضع الوزير ، فأكب على يديه ورجليه ، وأقبل يهنئه بكلمات رقاق ، ويدعو له ولمولوده ، ثم قال :

« أيها الوزير ، هذا يوم مبارك ، وقد رزقت ابنا . فارحمنى وارع سالف خدمتى لك ، واجعل ابنى موسوماً بخدمة ابنك ، يسلم معه فى المكتب ويتعلمان وينشآن فى دولتك فيكون كاتباً له »

ولم يكن محمد بن عبد الملك ممن يطيبهم مثل هذا الحديث . . كان فى قلبه لدادة وقسوة وجنوح إلى العسف والانتقام ، مما جعل شعاره الذى لا يخل به ، قولته المشهورة : «الرحمة خور فى الطبيعة»

فلم يزد على أن تشظت عروق جبينه قسوة وحرداً ، ثم قال :

— يا أبا أيوب ، أعلى تجيز هذا ؟ وإياى تستغر وتخاتل ؟ قد حدثتك نفسك بأن ابنك هذا يبلغ المبالغ وتؤمل له الوزارة . . ورجوت فى نوائب الزمان وقلت : أرجو أن يحتاج ابنه إلى ابنى حتى يطلب منه الإحسان والفضل . فإنى أستحلفك بالله وأحرج عليك ، إن بلغ ابنك هذا البلغ ، إلا وصيته إن جاءه ابنى لشىء من هذا ، ألا يحسن إليه !

وأعظم الحاضرون جميعاً هذا الخطاب العنيف ، وخيم على مجلس الطاغية صمت ثقيل لم يقطعه إلا كلمات خافتة متعثرة من سليمان ، تنفصل بها مما اتهم به واعتذر مما قاله ، ثم دعا للوزير وصمت

وعاد سليمان بعد قليل إلى ظلمات محبسه وهو يحدث نفسه أن هذا غاية البغى ، وأن ما تحدى به هذا الطاغية القدر بمباراته المريرة ، سيقع على وجه من الصحة يستخرج العبرة والعجب

على أنه عاد بعد أيام فقبل ماقرر عليه ، ورد عليه الواثق ضياعه وأقره على كتابة (إيتاخ)

* * *

ومرت سنين ، أصبح بعدها وليد سليمان — الذى اختار له أبوه وهو رهن المحبس عبيدالله اسماً ، وأبا القاسم كنية — أصبح فتى يافعا ، وشابا يتوسم فيه أهل الفراسة آيات النجابة وملامح المجد ،

وطارت خلال ذلك لأبيه سليمان شهرة ، وتأثل له مجد عريض

ولما مات الخليفة الواثق تولى بعده أخوه المتوكل (بغير عهد منه) وكان يحمل أشد الضغينة لمحمد بن عبد الملك ، ويحفظه عليه ما كان يجبهه به من المهانة زمن أخيه ، ثم مارامه يوم وفاة الواثق من تحويل الخلافة إلى ابن المتوفى صغير . فلم يشف غليل نفس المتوكل إلا أن وثب على محمد بن عبد الملك وثبة سلبه فيها أسباب نعمته ، ثم قتله بعد تنكيل وعذاب (فى صفر سنة ٢٣٣ هـ)

وعهد المتوكل فى مستهل نكبته لمحمد بن عبد الملك ، إلى سليمان بن وهب بمناظرته وإحصاء متاعه . فوافى داره فى كوكبة من الجند ، وهو لاهج اللسان بشكر الله على ما أولاه من نعمة ، وبلغه فى عدره من رغبة

ولقى فى الدار ذلكم الابن الصغير - أبامروان عبدالملك بن محمد ابن عبد الملك — يبكى ويتظلم . فاستدناه إليه وسأله عن قصته فقال :

— منعت كل مالى ، وأدخل ما أملك كله فى الإحصاء

فقال سليمان : لا بأس عليك . ثم أمر بأن يرد إليه كل ما كان له . وخر ساجداً لله على أن هيأ له أداء هذا الصنيع

وقص سليمان بعد حين على ابنه عبيد الله حديثه مع الوزير محمد بن عبد الملك ، فى يوم مولده ومولد أبى مروان ابن الوزير ، ثم قال لعبيد الله : يابنى ، بالله — إن رفعك الله والزمان ووضع ابنه حتى يحتاج إليك — إلا أحسنت إليه ! !

ووعى أبو القاسم عبيد الله بن سليمان عن أبيه هذا الحديث

* * *

ولما تولى المعتضد الخلافة استوزر عبيد الله بن سليمان بن وهب (فى رجب ٢٧٩ هـ) ؛ فكان من عادته أن يتخذ للمظالم مجلساً عاما . وفى يوم من هذه الأيام المشهودة دخل عليه فيمن دخلوا رجل رث الهيئة عليه ثياب غلاظ فعرض عليه رقعة . وقرأها الوزير قراءة متثاقل عنها ، ثم متفكر متعجب مما بها . ولما أتم استيعابها قال : نعم وكرامة ، أفعل ماقال أبى لا ماقال أبوك . كرر هذا القول ثلاثاً ثم قال له : عد إلى وقت العصر لأنظر فى أمرك

والتفت إلى خاصة صحبه فقال : إذا خلوت فذكرونى بحديث هذا لأخبركم منه بعجب عجيب . فتشوقت نفوس القوم إلى هذا الحديث

وواصل الوزير عمله يأمر وينهى بقية المجلس ثم قام فاستراح ، ودعا بالطعام فتناوله معه من حضر ، فلما بلغوا من ذلك حاجتهم أو كادوا قال الوزير : ما أراكم ذكرتونى بحديث صاحب الرقعة ! ثم أقبل يسوق إليهم ماحدثه به أبوه حتى بلغ منهم العجب غايته

ثم قال متمما حديثه : ولقد ضرب الدهر مضربه فما عرفت لأبى مروان خبرا ، حتى رأيته اليوم ، فكان ماشاهدتم

وأمر الوزير بإدخال أبى مروان عليه عند مقدمه . فلما قدم وهب له مالا وخلع عليه وحمله . ثم قلده ديوان البريد والخرائط ، فشغل هذا المنصب ثلاثين سنة أو أكثر

وكان يكتب إلى عبيد الله — عندما يكاتبه — وهو متقلد هذا الديوان : « عبد الوزير وخادمه ، عبد الملك بن محمد »

ولكن الوزير أراد أن يعفيه من هذه المخاطبة الذليلة فقال له : أنت ابن الوزير على كل حال ، ولا أحب أن تتعبد لى ، فاكتب اسمك فقط على الكتب

فقال أبو مروان : لا تسمح نفسى بهذا ، ولكنى أكتب (عبد الملك بن محمد خادم الوزير) . فقبل منه ذلك ، فكان يوقع بهذه العبارة إلى جميع الوزراء الذين كتب لهم حتى وافته منيته فى وزارة ابن الفرات الثالثة

وكان أبو مروان كالمترتب على هؤلاء الوزراء جميعاً بما عامله من ذلك عبيد الله ، فلزم هذا المنصب إلى أن مات [1]

وقد غلب عليه طوال هذه الفترة لقب أبى مروان الخرائطى ، حتى نسى الناس نسبه إلى ابن الزيات ، إلا من كان يلم بخاصة شأنه من جماعة الكتاب وغيرهم

محمود عزت عرفة

---

(١) عمل أبو مروان فى خدمة عدد من الوزراء أولهم عبيد الله بن سليمان بن وهب ، ومنهم ابنه القاسم بن عبيد الله ، والعباس بن الحسن ، وعلى بن محمد بن الفرات ، ومحمد بن عبيد الله الخاقانى ، وعلى بن عيسى ابن الجراح ، وحامد بن العباس

وكانت وفاته فى وزارة ابن الفرات الثالثة فى الفترة بين ربيع الثانى سنة ٣١١ ، وربيع الثانى سنة ٣١٢ هـ .